الإمامة الإباضيّة

زهير تغلات*

ملخص

النظريّة السّياسيّة عند الإباضيّة تتفرّد عن غيرها من النظريات الأخرى بالتّميز بين أربع مراحل تاريخيّة ،أولا عصر المجد وهو ظهور الفرقة الذي يتجلّى في قيام الدّولة ،ثانيا وفترات الأزمة التي تجبر المؤمنين على اختيار موقف الدّفاع ، أو ثالثا الشّراء الذي يُفرض في سياقات التّهديد الأقصى، رابعا وأخيرا عصر المساكنة والتّعايش القسري في ظلّ حكم غير إباضيّ يُكره فيه المؤمنين على ممارسة الكتمان.

استنبط الإباضيّة لكلّ عصر إمامة تخصّه، وهذه الضُروب من الإمامة لا تتغيّر من حيث مضمونها العقائدي وجوهرها وأهدافها البعيدة.بل هي متنوّعة من النّاحية التّكتيكيّة وسبل التّسيير والتكيّف وفق الوضع الذي يعيشه المسلمون. إن للإباضيّة وعي سياسي عميق وتفقّه بالأوضاع السّياسيّة جعلهم يختارون لكلّ مرحلة من المراحل ولكلّ منطقة من المناطق التي يوجدون فيها أسلوبا معيّنا يتلاءم مع تلك الأوضاع.

İBADİYE'DE İMAMET

ÖZ

İbadiye mezhebinin siyasi nazariyesi, tarihsel olarak geçirdiği 4 aşama ile diğer mezheplerden ayrılır. Rüstemi devletinin kurulduğu İbadilerin altın çağı ile başlayan bu merhaleler, İbadilerin İbadi olmayan bir devlet ve hükûmete tabi olarak yaşamayı kabul ettikleri dördüncü aşama ile sona erer. Tüm bu süreç boyunca İbadiliğin imamet anlayışı akidesi, özü ve uzun vadeli hedefleri bakımından herhangi bir değişikliğe uğramamış fakat Müslümanların içinde bulunduğu şartlar çerçevesinde taktik ve yöntem çeşitliliği söz konuşu olmuştur.

Anahtar Kelimeler : Ibadiye, Siyaset Düşüncesi, İmamet, Rüstemiler

IBADHI IMAMATE

ABSTRACT

The political theory of Ibadhiya differs from the other islamic sects due to its getting through four different stages along history. These stages has begun with the establishment of Rustemi State which is regarded as the golden age of Ibadhis, and ends with their surrender to a non-Ibadhi government's rule. Through this process, few has changed in terms of the principles, the essence and the long term purposes of the imamate theory. Ibadhis rather changed their tactics and tools as the community go under various conditions.

Keywords: Ibadhiya, Political Thought, Imamate

Makalenin Dergiye Ulaştığı Tarih: 12 Aralık 2014; Hakem ve Yayın Kurulu Değerlendirmesinden Geçen Makalenin Yayına Kabul Edildiği Tarih: 12 Ocak 2015

* زهير تغلات باحث تونسي ، أستاذ اللّغة والآداب والحضارة العربيّة، متخصّص في الحضارة العربيّة الإسلاميّة ولاسيما الفكر الإباضي.له مشاركات بحثيّة في الفِرق الإسلامية.يعمل ضمن فريق وحدة البحث اختصاص حضارة قديمة بكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة ، تونس.

تجتمع التّعاريف على اعتبار الإمامة قيادة ورئاسة، ونظامَ حكمٍ، وسلطة دينيّة سياسيّة، وأنّها خلافة عن رسول الله، تُعنى بكلّ شؤون الأمّة إقامةً للشّرع، ودفاعا عن الحقوق[1]. والمهمة الأساسيّة التي تنهض عليها الإمامة الإباضيّة، هي إقامة الدّين وتطبيق أحكام الله والمحافظة على وحدة المسلمين والدّفاع عن الأمّة، فكلّ من تولّى هذه المهام يعتبر خليفة رسول الله في رعاية شؤون الأمّة [2].

وقد عقد الإباضيّة إمامة الظّهور الأولى بالمغرب "لمّا بايعوا أبا الخطّاب على الإقامة بحقّ الله، والعمل بما في كتابه والاقتداء بسنّة نبيّه واتّباع الأئمة المهتدين قبله، قَبِل ذلك ودخل مدينة طرابلس ومعه جماعة المسلمين، على حين غفلة من أهلها، وذلك عام أربعين ومائة، فلمّا توسّطوا المدينة أشهروا السّلاح، وقالوا "لا حكم إلاّ لله "[3].

ونلاحظ دائما ربط الإمامة بالعصر التدشينيّ للإسلام، أي إمامة الرّسول للمسلمين، وكلّ إمامة لاحقة على ذلك تقاس بالإمامة الأولى قربا أو بعدا، ليُعرف الإمام اللاّحق أهو من "الأئمة المهتدين" أم من غيرهم، وهل أحسن "الإقتداء بسنّة نبيّه"، فكان موفّقا في خلافة الرّسول والنّيابة عنه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مصطلح "الإمام" متواتر بكثافة في كتاب السّير للشّماخي، ويتجلّى ذلك في معرض حديثه عن رأس السّلطة السّياسيّة والدّينية في المجتمعات الإباضيّة، من ذلك قوله في عبد الرّحمان بن رستم مؤسّس الدولة الرستميّة: "فلمّا بلغت الرّسل إلى تيهرت ألفوا الإمام فوق دار يطيّنها والعبيد يناولونه الطّين»[4]، ويضيف في موقع آخر من السّير: « فتعجّبوا من زهده في الدّنيا ورغبته في الآخرة، واعترف كلّ إباضيّ بإمامته، ووصلوه بكتبهم ووصاياهم»[5]. وقد سبقه إلى إثراء المدوّنة الإباضيّة بهذا المصطلح كلّ من الدّرجيني في الطّبقات، يقول: «فلمّا وصلت الأموال ووضعت للإمام شاور أصحابه فيها فأشاروا عليه بأن يأخذها، ويبثّها في فقراء المسلمين»[6]، وكذلك أبو زكريا في «كتاب السّيرة وأخبار الأئمة»، يقول: «فبايعوا عبد الرّحمان بن رستم على الإمامة بكتاب الله وسنّة رسول الله وآثار الخلفاء الرّاشدين المهتدين، فقبل عبد الرحمان إمامتهم ولم ينقم عليه أحد في حكومة ولا خصومة»[7] .

ومن هنا نلاحظ أنّ أغلب المصادر الإباضيّة تمعن في استعمال مصطلحيْ "الإمام" و"الإمامة"، أكثر من تواتر مصطلحيْ "الخليفة" و"الخلافة"[8] ، وقد يكون لهذا الاختيار ما يبرّره،

1 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، ط1، سلطنة عمان، وزارة الأوقاف والشؤون الدّينيّة، 2008 ، الجزء1، ص60.
2 عدون جهلان، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال أراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، ط3، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع، 2010، ص151.
3 الشّماخي، كتاب السّير، تحقيق محمّد حسن ، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2009 ، الجزء2 ، ص ص 248 ،249.
4 م.ن، ص266.
5 م.ن، ص ص 266، 267 .
6 الدّرجيني، ، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ط1، الجزائر، مطبعة البعث، 1984، الجزء1، ص 45.
7 أبو زكريا يحي بن أبي بكر، كتاب السّيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرّحمان أيوب، ط1، تونس، الدّار التونسيّة للنشر، 1985 ، ص 87.
8 الخليفة: بعد وفاة الرّسول كان لا بدّ للمسلمين من خليفة يقوم مقام النّبيّ لمواصلة رعاية الأمّة الإسلاميّة ، وهذه الوظيفة تعدّ أساسا خلافة محضة لرسول الله يقوم المستخلف فيها بتنفيذ ما كان الرّسول ينفّذه كما أنّ الخلافة تعني انقطاع الوحي بصفته من خصوصيات النبيّ ، ولهذا ظهر هذا المصطلح بعد وفاته وأوّل من حمله أبو بكر...ومن ثمّة أخذ هذا المصطلح معناه الحقيقي في ميدان السّياسة الشّرعيّة وطبع بطابع الخلافة التي يراد منها إتّباع أحكام الله وتنفيذها لأنّ المشرّع الوحيد هو الله.أنظر: بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، ط1 ، سلطنة عمان ، مكتبة الضّامري للنّشر والتوزيع ، 2010 ، الجزء الأوّل ، ص ص 139، 140 .

فقد لا « يُستعمل مصطلح الخلافة إلاّ في حقّ الخلفاء الرّاشدين، لكون بيعة الخلافة تتمّ بإجماع الأمّة كلّها وتجب طاعة الخليفة على الجميع. وأمّا الإمامة فتكون بيعة خاصّة زمانا ومكانا وفي المذهب الواحد غالبا»[9].

بيد أنّنا نذهب إلى أنّ مصطلح «الإمام» أعمّ وأشمل من مصطلح «الخليفة»، لأنّه علاوة على صلته بالولاية العظمى في السّياسة الشرعيّة، فإنّه مشبع بالمعاني الدّينية المستمدّة ممّا ترسّب في المخيال الإسلامي من قيم النبوّة والتّقوى والتقدّم في الصّلاة والدّين، فهو مصطلح قرآنيّ، يقول تعالى:﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[10]، ويقول أيضا:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[11]. ومن المرجّح أنّ هذا المصطلح قد تجلّى في القرآن الكريم للتعبير عن المسؤوليّة الدّينيّة ، وجاء حاملا لمعنى النبوّة والتّقوى والتقدّم في الدّين والصّلاة وما أشبه ذلك ، فكان قريبا من مفهوم الولاية العظمى ودخل في قاموس السّياسة الشرعيّة ، وغدت الإمامة والخلافة والإمارة والرئاسة عبارات مختلفة في اللّفظ ومتّفقة في المعنى العام ، ونتبيّن أنّ هذه التّعاريف متقاربة جدّا إذ لا يوجد فرق بين الإباضيّة وأهل السنّة والجماعة في مفهوم الإمامة ، فالكلّ يجمع على أنّها تحتوي في مفهومها الواسع خلافة رسول الله في أمور الدّين والدّنيا[12].

فلا شكّ إذن أن الإمام يجمع بين السّلطتين الدّينية والسّياسيّة، فعلاوة على رئاسة الحكم السّياسيّ في المجتمع المسلم، بما يعنيه ذلك من حفظ رزق الرّعية وأمنها، وتسيير حوائجها، والقضاء بينها، فإنّ الإمام هو المسؤول في الآن نفسه عن تطبيق الحدود، وقيام الشّرع في كلّ مفاصل الدّولة، وتكمن قيمة الإمامة في أنّها «من أصول الدّين التي يجب إقامتها لحاجة النّاس إليها، وهي من فروض الكفاية، يعتبر تركها تعطيلا لحدود الله تعالى، وتضييعا لحقوق العباد»[13].

ومتى كان ذلك كذلك، فإنّ الإباضيّة يسعون إلى أن يكون إمامهم «خير أهل عصره، وتكون طبائعه عقله، ثمّ يصل قوّة عقله بشدّة الفحص وكثرة سماعه بحسن العادة، فإذا جمع إلى عقله حزما، وإلى حزمه عزما، فذلك الذي يعدّ لعزّ الدّولة ونكاية العدو ويقوى على إقامة الحقّ ويكون عدلا مرضيّا «[14].

وتعتبر الإباضيّة ضمن الفرق التي أخذت في الإمامة بنظريّة الاختيار وهذا استنباط من إجماع الصّحابة على ذلك قولا وعملا فقد كانت إمامة أبي بكر باختيار أهل الحلّ والعقد من المهاجرين والأنصار. ويرتكز الاختيار عند الإباضيّة على أساس رضى المسلمين من النّاحية الدّينيّة والكفاءة العقليّة والخلقيّة ، وبالتّالي فإنّ تخطّي الرقاب إلى الإمامة أو الاستلاء عليها مبدأ مرفوض لديهم[15]. وانطلاقا من أنّ أهل الحلّ والعقد يصلحون جميعا لتولّي منصب الخلافة مع وجود الأفضليّة بينهم كما فعل عمر بن الخطّاب عندما رشّح ستّة من أصحاب رسول الله ، فإنّ الإباضيّة لا يفرّقون كثيرا

9 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص60.
10 البقرة، الآية 124.
11 الفرقان، الآية 74.
12 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة م.م ، ص ص 140- 142 .
13 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص60.
14 علماء عمان ، السّير والجوابات، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ط 1 ، سلطنة عمان . وزارة التّراث القومي والثّقافة ، 1986 ، ص 177.
15 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص ص 184- 186 .

بين أهل الشّورى كأعضاء وبين من يقدّم للإمامة ، فهم يمزجون بين الصّفات الدّينيّة كالورع والحلم والنّزاهة والبرّ للمسلمين وبين الصّفات الأخلاقيّة كأن لا يكون حسودا ولا كنودا ولا كذّابا ، والصّفات الذّاتية الجسديّة كالسّلامة من الجنون والعته والخرس وغيرها[16]. والإباضيّة لا يفرّقون بين الاستخلاف وولاية العهد وسواء أكان ذلك في حياة الإمام العاهد أو بعد موته ، فالعبرة بالطّريقة التي يتمّ بها العهد أو الاستخلاف وبالظّروف التي تمّت فيها العمليّة وأيضا بمؤهّلات المعهود إليه ، فلا يجوز أن يكون الاستخلاف بغرض الوراثة وبقاء الحكم في الأسرة ...والأمثل في الاستخلاف هو توفّر شروط الإمامة في المعهود عليه ثمّ استشارة أهل الشّورى اقتداء بابي بكر ورضا المسلمين بمرشحه ممّا يجعل هذا العمل ترشيحا فقط إن شاؤوا أخذوا به وإن شاؤوا أهملوه[17]. ونتبيّن من هذا أنّ الإباضيّة لم يبحثوا مسألة ولاية العهد بمفهوم أهل السّنة والجماعة الذي يوحي بالوراثة في الحكم بل على أساس أنّه استخلاف ومجرّد ترشيح والأصل في هذا اعتقاد الإباضيّة بأنّ الحكم لا يورّث بل يجب أن يتمّ بالاختيار فقط ، بطرقه الثلاثة: الانتخاب أو الاستخلاف أو مجلس الشّورى[18].

وممّ تجدر الإشارة إليه أنّ الإباضيّة رفضوا مبدأ ولاية العهد أساسا ، وقد يعود ذلك إلى نبذهم لنظام التوريث لأنّ ما آل إليه أمر المسلمين فيما بعد يجعل ولاية العهد مسألة غير مستحسنة[19].

وأمّا الشّروط المؤهّلة للإمامة فهي اثنا عشر شرطا وهي: كونه بالغا عاقلا ليس بأعمى ولا أصمّ ولا أخرس ولا زمنا ولا مقطوع اليدين والرجلين ولا ممّن أقيم عليه حدّ من قطع وجلد وأن يكون من أهل العلم والدّين والورع وأن يعقد له من أهل الولاية ستّة رجال بالغين عاقلين من أفضل المسلمين علما وورعا ودينا ، والتّاسع ألاّ يعقدوا لأحد قبله من المسلمين إلاّ أن يكون بينه بحر ، فإن لم يكن بحر كان داعية للذي قبله.وقد جمعت هذه الفقرة أهمّ الشّروط التي جاء بها فقهاء الإباضيّة للإمامة ، ومن خلالها يُلاحظ أنّ الإباضيّة قد ركّزوا على شرط العلم والورع والتقوى بالدّرجة الأولى ، ثمّ الصّفات الخلقيّة كالصّدق والوفاء بالعهد والأخلاق الحسنة ، ثمّ الصّفات الخلقيّة كأن لا يكون أصمّا ولا أعمى ولا ناقص الجوارح ، وما يسقط عنه فرض الجهاد ولا مجنونا ولا معتوها ، وفي الدّرجة الثّالثة صفة الرّجولة والرأي والذّكاء والشّجاعة وقوّة الشّكيمة[20].

وقد بان بهذا الكشف أنّ الإباضيّة لا يلتفتون إطلاقا إلى شرط القرشيّة باعتباره من شروط الأفضليّة ، ويقابلون حديث: ﴿الأئمة من قريش﴾ بحديث:﴿اسمعوا وأطيعوا لمن يحكمكم ولو كان عبدا حبشيّا رأسه كرأس زبيبة﴾ [21].

فالإباضيّة مجتمعون على أنّ الإمامة حقّ للجميع متى توفّرت الشّروط المطلوبة في المقدّم مستأنسين في ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[22]، وأنّ المعقول يخالف حصر

16 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 196 .
17 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 210 .
18 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 211 .
19 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 211 .
20 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص ص 232، 233 .
21 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 234 .
22 الحجرات ، الآية 13.

الإمامة في قبيلة أو أسرة واحدة كما أنّ النبيّ كان قد ولّى من عدّة قبائل ، وتعدّ مسألة إبعاد النسب القرشيّ من النّقاط التي يلتقي فيها الإباضيّة مع الخوارج[23].

ولعلّ ممّا يميّز فقهاء الإباضيّة وعلماءها عن غيرهم في الفكر الإسلاميّ عدم اشتراط القرشيّة ولا العروبة كمقياس في المرشّح للإمامة لأنّ ذلك يتنافى في تقديرنا مع أهمّ مبدأ إسلاميّ وهو المساواة المطلقة بين النّاس إلاّ بالتّقوى ومبدأ تكافؤ الفرص لجميع أفراد الأمّة الإسلاميّة لتولّي المناصب العامّة مهما كان خسبهم ونسبهم.والإباضيّة يرون أنّ المعيار الأساسيّ الوحيد المعتبر في منصب الإمامة إنّما هو الكفاءة المطلقة في جميع صورها العلميّة والأخلاقيّة والجسميّة ، أمّ اعتبارات الانتساب لجنس أو قبيلة أو لون أو أسرة فليس لها أيّ دور في اختيار الإمام لأنّ الإمامة حقّ مشاع بين كافة المسلمين لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لأعجميّ على عربيّ إلاّ بالتقوى وكلّ شخص مؤمن وليس بعاصي له الحقّ في تولّي الإمامة[24].

وممّا يستدلّ به على أهميّة هذا الشرط أنّ أسلاف الإباضيّة كانوا أوفياء له منذ العصر الإسلاميّ الأوّل ، «إذ جوّز المحكّمة الأولى أن تكون الإمامة في غير قريش»[25]. وهذا بيّن مكشوف، إذ «بايعوا عبد الله بن وهب الرّاسبي»[26]، وهو ليس قرشيّا، ويعتبره الإباضيّة أوّل أيمة الدّفاع عندهم وينسبونه إليهم، ويَنْتسبون هم بدورهم إليه بتسميّة «الوهبيّة»، وبناء على ذلك فإنّ النّسب ليس شرطا في الإمامة، «لذا يجوز لأيّ مؤمن غير ذي كبيرة أن يترشّح للإمامة»[27]، فالمانع الذي يحول دون ذلك إذن ليس مانع النّسب، بل هو مانع دينيّ فقهيّ يتّصل بانعدام العفّة والورع.

ويتبدّى لنا بناء على ما سبق أنّ شروط الإمامة التي يراعيها أهل الحلّ والعقد في تنصيب الإمام عند الإباضيّة، يمكن تبويبها إلى شروط عامّة وشروط خاصّة ، ونعتقد أنّ الشّروط العامّة تخترق كلّ الإمامات الإباضيّة مهما كان نوعها، وتُعنى تلك الشّروط بالجانب العلميّ والخِلقيّ والخُلقيّ، فاشترطوا في الإمام أن يكون "ذكرا، مسلما، حرّا، بالغا، عاقلا، صحيح البدن، سليما، قويّ الشخصيّة، ذكيّا ورعا، ذا خُلق حسن، صالحا، مشهورا بعدالته وعفّته وصدقه، عالما مجتهدا يتمكّن من إقامة الحجّة وإزالة الشّبهة، ولا يشترط أن يكون قرشيّا "[28].

وقد جاء في السّير أنّ إمام الإباضيّة الأوّل جابر بن زيد كان علاّمة، «فهو بحر العلم وسراج الدّين، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه»[29]، وكذلك أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وهو "من أكبر دعاة الإباضيّة وأئمّتهم"[30]، فقد» أخذ عنه خلق كثير، وعنه حمل العلم إلى المغرب

23 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظرية والتطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 235 .
24 أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، ط1 ، غرداية ، المطبعة العربيّة ، 2012 ، ص 139.
25 حياة عمامو، «السّلطة والشّرعية في نظام الحكم الإسلاميّ المبكّر»، ضمن: السّلطة وهاجس الشّرعية في الثّقافة الإسلاميّة، ط1، تونس، دار أمل للنّشر والتّوزيع، 2005، ص56.
26 البرّادي ، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أغلّ به كتاب الطّبقات ، طبعة حجريّة، القاهرة، دت ، ص 67 .
27 بيير كوبرلي، مدخل إلى دراسة الإباضيّة وعقيدتها :بحث مقارن في العقيدة الإباضية في بلاد المغرب وعمان، م.م، ص414.
28 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص55.
29 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء1، ص183.
30 محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة عند الإباضيّة ، ط2 ، سلطنة عمان ، مكتبة الاستقامة ، 2002 ، ص 117.

وإلى المشرق حملة العلم»[31]، فلا جدال إذن في أنّ العلم والاجتهاد فيه، أسّ من أسس الإمامة عند علماء الإباضيّة، فهم»يعلّقون إعلان الإمامة وقيامها أساسا بوجود العلماء بأصول الدّين وفقه الشّريعة الإسلاميّة، لأنّ المفروض في الإمام أن يكون قائد أمّة في جميع مجالات حياتها وليس أهمّ في المجتمع الإسلاميّ من الدّين»[32].

ونرجّح أنّ الخصلة الثّانيّة المقدّمة على غيرها في الإمام، هي أن «يشتهر عدله»[33]، ويُعرف عنه" زهده في الدّنيا ورغبته في الآخرة"[34]، وممّا يستدلّ على أنّ الورع والعدل يليان في الرّتبة العلم بأصول الدّين وفقه الشّريعة، أنّه» إذا تقدّم للإمامة شخصان متكافئان، فإنّ المميّز الذي يرجّح أحدهما على الآخر هو العلم، فإن تساويا فالأورع»[35]. وقد جاء في السّير أنّ الكلمة «اجتمعت بعد اختلافها على محمّد بن أفلح[36] لعلمه وورعه"[37]، وعليه فإنّ اجتماع العلم والورع هما الحدّ الأدنى لقيام الإمامة والإجماع عليها، وتجاوز ما قد يجدّ من خلاف، لأن ذلك من شأنه أن يكسب الإمام ثباتا وقوّة في العقل والشّخصيّة.

واُستنتاجا ممّا سبق ، أمكن لنا أن ندرك أنّ النظريّة السّياسيّة الإباضيّة في الإمامة تركّز على شروط أساسيّة يمكن أن نجمعها في:

الكفاءة العلميّة : وترمي إلى إقامة دولة يسيّرها العلماء ، وأوضح مثال على ذلك الدّولة الرستميّة التي اشتهر أئمّتها بشغفهم بالعلوم الدّينيّة والدنيويّة كما ترك حكّامها عدّة مؤلّفات فقهيّة[38].

الكفاءة الأخلاقيّة: لقد أجمع أهل الاستقامة من الأئمة على طاعة إمام العدل ، ما أطاع الله ورسوله ، وعمل بكتاب الله وسنة نبيه [39] ، فالعدالة هي مدار الأخلاق الإسلامية لأنّها تضمن المساواة بين النّاس ، وتنبذ التميز بجميع أشكاله ...بمعنى أن يكون الإمام إمام الدّين والطّريق المستقيم وليس ملكا متجبّرا مستبدّا ، ولعلّ تعريف مفهوم الإمام العدل يتجلّى بوضوح في قول بن سلاّم اللواتي الإباضي : «لا يكون إماما مستقيما إلاّ من يكون النّاس عنده كلّهم في الحقّ سواء ، القريب والبعيد والشّريف والوضيع والصّغير والكبير والأحمر والأسود ولا يتفضّل النّاس عنده إلاّ بتقوى الله تعالى لأنّ النّاس كلّهم في الحقّ سواء فمن لم يكن كذلك ليس هو من أهل العدل»[40] .

31 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء1، ص199 .
32 محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة عند الإباضيّة، م.م، ص 211.
33 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص266.
34 م.ن، ص267.
35 محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة عند الإباضيّة، م.م، ص ص 210 ،211.
36 محمّد بن أفلح بن عبد الوهّاب ابن عبد الرحمان بن رستم (أبو اليقضان)،حكم:261-281هـ/874-894م، خامس الأيمّة الرّستميين، ولد بتيهرت ونشأ بها، تلقى العلم عن أبيه أفلح وجدّه عبد الوهّاب، تذكر المصادر أنّه سجن ببغداد قبل توليه الحكم، قبضت عليه عيون بني العبّاس في موسم الحجّ، عرفت الدولة الرستميّة في عهده انفتاحا على المذاهب المختلفة، فاهتمّ العلماء والفقهاء بالمناظرات الفقهيّة والكلاميّة، كانت له حلقات علم بتيهرت الرّستميّة، له رسالة في خلق القرآن وكتب في الردّ على المخالفين، توفي سنة 281هـ ، انظر: محمّد بن موسى بابا عمّي، إبراهيم بن بكير بحاز، مصطفى بن صالح باجو، مصطفى بن محمّد شريفي، معجم أعلام الإباضيّة، مراجعة محمّد صالح ناصر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000 ، ج 2 ، ص 359.
37 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص359 .
38 أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، م.م ، ص 147.
39 أبو سعيد محمّد بن سعيد الكدمي ، الاستقامة ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثّقافة ، 1985 ، الجزء الثّاني ، ص 119.
40 ابن سلاّم اللواتي الإباضي ، بدء الإسلام وشرائع الدّين ، تحقيق شفارتز وسالم بن يعقوب ، ط1 ، بيروت ، دار اقرأ للنّشر والتوزيع والطباعة ، 1985 ، ص 122.

الشّورى: وهي من مقتضيات العدل لذلك فإنّ الإباضيّة يلزمون توفّر هذه الصّفة في المرشّح للإمامة ، إذ يوجب قطب الأئمة الشّيخ اطفيش أن يكون الإمام مشاورا "لذوي السّتر والدّراية وأهل العلم والتجربة" أي أن تتوفّر في أهل الشّورى ثلاث كفاءات : السّتر والمعرفة والتجربة [41].

وقد رأى الشّماخي أنّ الخصال السّالف ذكرها قد اجتمعت في إمام الرستميّين الأوّل، فقد " اتّفق رأيهم على عبد الرّحمان لفضله، وكونه من حملة العلم، ولكون المسلمين أرادوا تقديمه قبل أبي الخطّاب، وامتنع لأمانات كانت تحته للنّاس وودائع، ولأنّه لا قبيلة له تمنعه إذا تغيّر عن طريق العدل"[42].

بيد أنّ تولية أفلح بن عبد الوهاب الإمامة تأتّت بطريق الوراثة ممّا اعتبر أوّل خروج عن المنهج الشّوري في توليّة الإمام الذي يعد ركنا جوهريّا في الفكر السّياسي الإباضي ، وبذلك يمكن القول أنّ الإمام عبد الوهّاب كان أوّل من أحدث بدعة التّوريث في الدّولة الرستميّة وفتح المجال للأسرة الحاكمة لتحتكر الحكم من دون المسلمين ، ممّا أدّى إلى تنازع أفرادها وتطاحنهم على الحكم فكان ذلك من أهمّ أسباب انهيار هذه الدّولة[43].

ومن ثمّة ، فإذا أقررنا بشرعيّة عبد الرّحمان ابن رستم وابنه عبد الوهّاب ، ذهبنا إلى أنّ إباضيّة المغرب قد طبّقوا النظريّة الإباضيّة في الإمامة في اختيار الإمامين الأولين للدّولة الرستميّة إلى مدى نصف قرن ، غير أنّ هذه النظريّة قد تعثّرت وتُرك العمل بها لمّا احتكرت العائلة الرستميّة الإمامة منذ إمامة أفلح بن عبد الوهّاب وأبدعت طريقة التّوريث التي يرفضها الإباضيّة ، ومهما يكن من أمر فإنّ ذلك يعتبر مخالفة من قبل الرّستميين لأحد أهمّ المبادئ السّياسيّة للإباضيّة[44].

فمن اجتمعت فيه الشّروط التي تقرّها النظريّة الإباضيّة في الإمامة أُعتبر "إمام هدًى"، ومن غابت عنه كان "إمام ضَلالة"، ولعلّ ذلك يتّضح في خاتمة رسالة ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان إذ يقول، "إنّ النّاس إنّما يتّبعون في الدّنيا والآخرة إمامين إمام هدى وإمام ضلالة، فإمام الهدى الذي يتّبع كتاب الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله، وهؤلاء هم الأئمّة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم، وأمّا أئمّة الضّلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير قسمة الله ويتّبعون أهواءهم بغير سنّة من الله" [45].

ويبدو أنّ سائر الصّفات، من قبيل أن يكون الإمام ذكرا وحرّا وبالغا وعاقلا وصحيح البدن، هي من البديهيات المتّفق عليها تقريبا عند الإباضيّة وغيرهم من الفرق .

وعلاوة على ما سبق ذكره من الشّروط فإن الإمامة الإباضيّة تتّسم بسمات وشروط أخرى تستمدّ خصوصيّتها من اختلاف المسلك الذي تتنزّل فيه.فالشّروط الخاصّة بإمامة الظّهور هي غير الشّروط الخاصّة بإمامة الدّفاع أو الشّراء، كما أنّ لإمامة الكتمان شروطا تخصّها. وقد ارتأينا أن نتبيّن هذه الشّروط الخاصّة ضمن كلّ نوع من أنواع الإمامة عند الإباضيّة.

41 أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، م.م ، ص ص 148، 149.
42 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص265 .
43 أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، م.م ، ص 227
44 أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، م.م ، ص ص 229، 230.
45 البرّادي، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات، م.م، ص 166.

1. أنواع الإمامة عند الإباضيّة:

يحسن بنا أن نشير في مستهلّ هذا المبحث إلى أنّ مسألة الإمامة وثيقة الصّلة بموضوع مسالك الدّين إلى حدّ التّماهي والخلط بينهما ، فجلّ مؤلّفات الإباضيّة[46] ، تكاد لا تتوخّى فصلا منهجيا في التّمييز بين مصطلحي «المسلك» و»الإمامة»، ، فقد غلب فيها التّداخل بين المصطلحين، من ذلك قول بكير بن بلحاج وعلي : «يختصّ الفكر الإباضيّ بطرحه نماذج للإمامة تسمّى بمسالك الدّين ليقدّموا للأمّة الإسلاميّة حلولا تتّفق مع كلّ الأوضاع العصبيّة التي قد تصادفها مع المحافظة على المبادئ الإسلاميّة»[47].

بيد أنّنا نروم التّمييز بين المستويين ، ونود أن نذكّر بأنّ مسالك الظّهور والدّفاع والشّراء والكتمان، هي مراحل يعيشها المجتمع الإباضيّ حسب درجة قوّته أو ضعفه، في السّياقات التّاريخيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة ، علما وأنّ مسلكي الدّفاع والكتمان فُرضا على الإباضيّة فرضا ، ولم يرضوهما لأنفسهم اختيارا. وعليه فإنّ المسلك معطى موضوعي خارج وسابق للوعي السّياسي به ، بل هو الوجود الاجتماعي والتاريخي للفرقة الإباضيّة في لحظة ما من سيرورتها التّاريخيّة. واستنادا إلى المسلك يستنبط «التخطيط لإقامة الدّولة»[48].

وحين نتدبّر رويّة هذا الأمر ، يتبدّى لنا أنّ الإمامة في المجتمع الإباضي ترتقي لتجسّم الوعي باللّحظة التاريخيّة الاجتماعيّة نحو استنباط الخطّة السّياسيّة المحكمة الملائمة لإدارة المسلك القائم ، وفي نفس هذا الاتّجاه تُعتبر الإمامة رأس السّلطة السّياسيّة والدّينيّة والآلية التي يُفترض أن تتلاءم مع كلّ مرحلة من المراحل المذكورة ، وفي هذا الصّدد يمكننا أن نتحدّث عن أنواع الإمامة التي ابتدعها الإباضيّة حسب كلّ مسلك أو مرحلة ، واستنبطوها بعد أن أداموا النّظر فيها لتتكيّف مع الظّرف السّياسيّ والتّاريخي المحدّد.

وانطلاقا من هذا الاعتبار نرى أنّ الإمامة هي آليّة التكيّف مع المسلك وفنّ التأقلم مع الممكن السّياسي للتأثير فيه وتغييره. وهي التي ترسم الخطّة الملائمة لتسيير الشّأن الإباضي الدّيني والاجتماعي والسّياسي ، وتعمل بشكل جدليّ يقوم على التأثير والتأثّر لتطوير المسلك والحفاظ عليه إذا تعلّق الأمر بمسلك الظّهور ، أو إيجاد السّبل المؤدّية إليه عبر المرور بمسالك الدّفاع أو الشّراء أو الكتمان، وعلى الإمام أن "يتقيّد بضوابط المرحلة التي بويع لها "[49].

1.1 إمامة الظّهور:

إمامة الظّهور مظهر من مظاهر الإمامة، وهي الإمامة الكبرى، ويكون أمر المؤمنين فيها ظاهرا، بحيث يستطيعون تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، ومحاربة

46 أنظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م، ص177. أنظر أيضا: محمّد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضيّة، م.م، ص216. وأنظر كذلك: عمرو خليفة النّامي، دراسات عن الإباضيّة، ترجمة مخائيل خوري وماهر جرّار، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001 ، ص 275 ؛ و مهدي طالب هاشم ، الحركة الإباضيّة في المشرق العربي ، م.م ، ص263.

47 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الثّاني ، ص 618.

48 عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م، ص177.

49 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص56.

الظّالم، وردّ العدوّ[50]. ويتولّى إمام الظّهور رئاسة الحكم في المجتمع المسلم، ويتمّ اختياره بالبيعة [51]. ويبدو أنّ مرحلة إمامة الظّهور تعدّ في نظر الإباضيّة أفضل المراحل لأنّها هي الأصل، وهي "الهدف الذي يقاتل ويستشهد في سبيله الإباضيّة "[52]. وقد سُئل ابن محبوب عن الإظهار هل فيه وقت؟، قال:لا نعلم فيه وقتا، إلاّ أن يقوى على النّاس، فيتبيّن لهم الحقّ وينسبه لهم[53]، قيل: فإنّ النّاس يقولون: أربعين رجلا، قال: ربّما قدر الرّجل في الأربعين، وربّما لم يقدر في عشرة آلاف، وربّما ينظر في تبليغ الحجّة[54].

وتتذاكر مؤلّفات الإباضيّة «تولية أبي الخطّاب المعافري»[55]، إماما للظّهور بطرابلس، لأنّ هذه اللّحظة مفصليّة في تاريخ إباضيّة المغرب، ذلك أنّها تعدّ فاتحة إمامات الظّهور لدى المغاربة، أمّا المشارقة فقد سبقوا إلى ذلك، رغم قصر عمر مثل تلك الإمامات، ففي اليمن فزع النّاس إلى عبد الله بن يحي، بعد أن ظهر باليمن وحضر موت جور كثير "فكاتب أبا عبيدة، فقال: إن استطعت فلا تبقى يوما واحدا"[56]، فعمل بهذه النّصيحة «ودخل صنعاء[57]، وقسّم ما وجد من مال على الفقراء»[58]، أمّا في عُمان «فقد أثمرت جهود العمل السرّي للدعوة الإباضيّة، في إقامة الإمامة الأولى حيث تمّ اختيار الجلندي بن مسعود إماما للمسلمين الإباضيّة، داعين المسلمين في الأقاليم إلى مبايعته خليفة جديدا»[59]، وبهذه الطّريقة تصبح إمامة الظّهور تتويجا لسيرورة من الجهود والإخفاقات والنّجاحات عبر المسالك الوعرة التي تسبق الظّهور، فتغدو الإمامة الكبرى هي السّلطة التي يتسنّى بواسطتها إقامة الحدود، وتنفيذ حقوق الله وحقوق العباد لأنّ «الدّولة حينئذ تكون قد ظهرت على غيرها بعد أن تكاملت فيها جميع الوظائف العامّة والأساسيّة ويكون المجتمع الإسلاميّ فيها حرّا مستقلاّ ذا سيادة في أرضه» [60].

ولا جدال في أنّ المتأمّل في إمامات الظّهور عند الإباضيّة، يلحظ اختلافا بينها في الامتداد الزمنيّ والجغرافيّ، ففي رأينا أنّ إمامة الظّهور المجسّمة في الدولة الرّستميّة كانت تمثّل "الظّهور الكامل"، فقد أخبرنا الشّماخي بملامح تطوّرها وازدهارها واستغناء الإمام عبد الرّحمان بن رستم عن مساعدة إباضيّة المشرق بعد أن اشتدّ عود تيهرت، فلمّا "أرسلوا له بما يقرب من عشرة أحمال أو أزيد بقليل، قال للرّسل: ارجعوا بما لكم، فإنّ أربابه أحوج إليه منّا، لأنّنا في أرض استولى عليها العدل، وهم في بلاد غلب عليهم الجور"[61] .

50 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء2، ص659.
51 م.ن، ص658.
52 عدون جهلان، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م، ص178.
53 أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي ، المصنّف ،ط1 ، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، دت، ج10، ص 51.
54 م.ن، ص 51.
55 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص 247.
56 م.ن، ص213 .
57 صنعاء: موضعها باليمن، وهي حاضرته، منسوبة إلى جودة الضّنعة، وبينها وبين عدن ثمانية وستّون ميلا، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، م.م، المجلّد3، ص ص425، 426. وأنظر كذلك: الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء3، ص 859.
58 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء1، ص213 .
59 فاروق عمر فوزي، الإمامة الإباضيّة في عمان، ط1، الأردن، جامعة آل البيت، 1997، ص 34.
60 عدون جهلان ، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش ، م.م، ص ص178، 179.
61 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص ص 266، 267.

ونستخلص ممّا سبق اختلافا في إمامات الظّهور عند الإباضيّة، فلئن اتّسمت الإمامة الرّستميّة بالنّماء والتّطور، والامتداد الجغرافي والزّمني، فكان الظّهور فيها يميل إلى الكمال، فإنّ إمامات الظّهور السّابقة لها في المشرق والمغرب، اتّسمت بعدم الاستقرار وقصر العمر، وموت الأئمّة مهزومين في الحرب، فكان الظّهور فيها ناقصا أو ضعيفا لأنّها «لا تحقّق كلّ الأهداف المرجوّة ولا تبلغ كمال الظّهور، ولا الإمامة العظمى، فتضعف عن تطبيق بعض المبادئ السّياسيّة»[62].

ويُشترط في إمام الظّهور أن يسير على تعاليم المذهب الإباضيّ، ووفق منهج الشّرع الإسلاميّ، فينفّذ أحكام الله، ويقيم الحدود، ويصون الحقوق، ويردّ المظالم، ويحفظ الثّغور، ويحمل دعوة الإسلام إلى بلاد الكفر، لأنّ الدّولة حينئذ تكون قد ظهرت على غيرها، بعد أن تكاملت فيها جميع الوظائف العامّة والأساسيّة [63].

2.1 إمامة الدّفاع:

يذهب الإباضيّة إلى أنّ إمامة الدّفاع مرحلة من مراحل الإمامة، وهي أقلّ درجة وشأنا من إمامة الظّهور، وتكون عادة بين الظّهور والكتمان، ولا يلجأ إليها إلاّ عند الضّرورة، وذلك عند مداهمة عدوّ لجماعة المسلمين إذا كانوا في مرحلة الدّولة الظّاهرة، أو اعتداء على دولتهم إن كانوا في مسلك الكتمان[64].

وقد سُمّيت بإمامة الدّفاع لأنّ مدار تلك المرحلة على الدّفاع، فلا يشغل المسلمين فيها سوى حفظ أنفسهم ودينهم وكيانهم، أمّا إقامة الدّولة والظّهور على الأعداء فلا يكونان من أوكد اهتمامهم، ذلك أنّ المسلمين قد ضعفوا وتخلفوا عن شرف الظّهور، لنقص إمكانياتهم وقلّة عددهم، فيصبح أمر الدّفاع واجبا. حينها يلجأ الإباضيّة إلى اختيار إمام يقود الجماعة لاسترجاع حقوقهم، وتدعى إمامته بإمامة الدّفاع[65].

ولا يخفى فوق ما سبق أنّ إمام الدّفاع، إذا هدأت الأوضاع واستقرت، تزول إمامته بزوال موجباتها[66]. ومن أشهر أئمة الدّفاع عند إباضيّة المغرب، أبو حاتم الملزوزي، فقد ورد في السّير" أبو الخطّاب إمام ظهور، وأبو حاتم إمام دفاع"[67] .

ولقد بويع أبو حاتم إماما للدّفاع بطرابلس سنة 145هـ/762م، بعد القضاء على إمامة أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري، فقد "تتبّع عدوّ الله محمّد بن الأشعث المسلمين، يقتّل ويستذلّ"[68]، فكان لزاما على الإباضيّة الدّفاع عن النّفس بعد أن "ضعفت شوكتهم"[69]، فطمع فيهم العدوّ. ولم يغفل صاحب كتاب السّير عن ذكر ما تحلّى به أبو حاتم من سمات تُشترط في

62 عدون جهلان، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م، ص 180.
63 م.ن، ص 180.
64 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص377.
65 عدون جهلان، الفكر السّياسيّ عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م، ص 185.
66 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص378.
67 الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء2، ص 263 .
68 م.ن، ص 258 .
69 م.ن، ص 258 .

إمام الدّفاع، فقد كان شجاعا لمّا «أرسل إليهم والي طرابلس خمسمائة فارس، فقاتلهم أبو حاتم، فهزمهم»[70]. وأبدى من الحنكة والرأي حين خادع الأعداء في حصار القيروان[71]، "فكمن لهم في وادي رقّادة[72]»[73]، وكان له من الصّبر والثّبات في القتال ما مكّنه من حصار القيروان[74] «أشهرا بل سنة»[75]، فاجتمع إباضيّة المغربين الأدنى والأوسط تحت رايته، «وأجابوا الطّاعة»[76]، وجمع أبو حاتم إلى الشّجاعة والحنكة والأمانة والتحلّي بأخلاق الحرب، ويتجلّى ذلك عندما «غضب، وقال: إن لم تردّوا أسلابهم، اعتزلت ولايتكم»[77]، بعد أن وجد من «جُرِّد» من القتلى اثر الانتصار على جند والي طرابلس، وقد ألمع الشّماخي من خلال أبي حاتم إلى أبرز سمات إمام الدّفاع بقوله: «ولولا ورعه وحزمه ما بايعه الإباضيّة إمام دفاع، وفعلا لقد قام بمهمّته أحسن قيّام إلى الشّهادة في وقعة مغدامس[78]»[79].

ولئن كانت إمامة الدّفاع أقلّ درجة وشأنا من إمامة الظّهور في تصنيف الإباضيّة، فإنّها في رأينا لا تقلّ قيمة ولا خطورة، لأنّها تنهض على مقاومة المعتدي عند الغارة وحالات التّهديد والمداهمة، حفاظا على الدّين والهويّة المذهبيّة والثقافيّة والسّياسيّة من الأفول.

ولا يخفى فوق ما سبق أنّ إمامة الدّفاع، ضرب من الإقدام للتّضحيّة بالنّفس، واستعداد لإيثار الجماعة على الذّات، وإليها توكل حماية الثّغور من الأعداء المتربّصين بالمجتمع الإباضيّ، ناهيك أنّ جلّ أئمة الدّفاع قد استشهدوا ذودا عن كيانهم وصونا لمذهبهم، ودونك عبد الله بن وهب الرّاسبي الذي اختير قبل معركة النّهروان، فكان "إماما عاما للسّياسة والدّفاع"[80]، وأبو حاتم الملزوزي الذي "منذ بويع وما استكان للشّيطان، ولا طلب الرّاحة للبقاء، بل جرّد سيفه، وأقام دين الله طاعة فقاتل جنود الظّلم"[81]. ويمكن أن نذكر أيضا من ضمن أئمّة الدّفاع البارزين عند الإباضيّة، أبا خزر يغلي بن زلتاف الذي كان له نشاط سياسيّ عسكريّ هامّ، إذ قاد ثورة مسلّحة ضدّ جور العبيديين، انتقاما لمقتل زميله أبي القاسم يزيد بن مخلد، فبويع إمام دفاع، وحشد جيشا لقتال المعزّ

70 م.ن، ص 259 .

71 كان له جيش لم يجتمع لأحد من الإباضيّة بإفريقيّة مثله قبله، قدّره بعض المؤرّخين بثلاثمائة وثلاثين ألف جنديّ، شارك به سنة 151هـ/768م في الثورة ضدّ عمرو بن حفص والي افريقيّة، ودخل به مدينة طرابلس، فاستولى عليها سنة 153هـ/770م بعد هزيمة جيش الجنيد بن بشار الأسري عامل عمرو بن حفص على طرابلس، وواصل هجوماته فحاصر القيروان، ودخلها الإباضيّة سنة 154هـ/771م بعد عام من الحصار، انهزم أبو حاتم وجيشه في مغدامس سنة 155هـ/772م، أنظر: معجم أعلام الإباضيّة، م.م، الجزء 2، ص 475.

72 رقادة: مدينة أميريّة بإفريقيّة قرب القيروان بناها إبراهيم الثّاني الأغلبي سنة 263هـ/877م، بينها وبين القيروان أربعة أيّام، أنظر: ياقوت الحموي، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلّد 3 ، ص55. وأنظر كذلك: الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء3، ص 853.

73 م.ن، الجزء2، ص 259 .

74 القيروان:حاضرة إفريقيّة منذ نشأتها سنة 50هـ/670م إلى أواسط القرن 5هـ/11م، وهي مدينة عظيمة بإفريقيّة، مصّرت في الإسلام في أيّام معاوية، وهي في وسط البلاد، وقد اختار عقبة بن نافع هذا الموضع لبعده عن البحر اتّقاء غزوات الأعداء، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلّد4 ، ص ص420، 421. وأنظر كذلك: الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء3، ص 859.

75 م.ن، الجزء2 ، ص 259 .

76 م.ن، ص 259 .

77 م.ن، ص 259 .

78 مغدامس: موضع ساحليّ بالشرت بين بورتمة والزّعفران، شرقي طرابلس، انهزم فيه الإباضيّة بقيادة أبي حاتم الملزوزي سنة 155هـ/772م، أنظر: مجموعة من الباحثين ، معجم مصطلحات الإباضيّة، الجزء2، ص959. وأنظر كذلك: الشّماخي، كتاب السّير، م.م، الجزء3، ص 873.

79 فرحات الجعبيري، التجربة السيّاسيّة الإباضيّة في المشرق والمغرب، بحث مرقون، مكتبة فرحات الجعبيري ، دت ، ص 139.

80 محمّد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، طبعة الكترونيّة، مؤسسة تاوالت الثقافيّة، 2010، الجزء 2، ص 331.

81 عدون جهلان ، الفكر السياسيّ عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، م.م ، ص 187.

الفاطميّ، وتوجّه إلى باغاي سنة 358هـ/968م، ولكنّه تعجّل الأمر قبل أن يصله المدد من ريغ والزّاب وورجلان، فحاصره المعزّ وأخفقت ثورته[82].

ونستنتج ممّا تقدّم أنّ إمام الدّفاع يُشترط فيه أن يكون عالما ذا مقدرة عسكرية رفيعة، له السّلطة الكاملة ذاتها كإمام الظّهور إلى أن تبلغ الحرب نهايتها، وبنهاية الحرب تنحل إمامته تلقائيا لزوال الشّروط الموضوعيّة التي أوجدته، فلا يكون لدى المسلمين أية صعوبة في إزاحته من منصبه، بعد ذلك ينتخب المسلمون إمامهم الجديد مستأنسين في ذلك بطبيعة المسلك ، فإمّا الظّهور، وإمّا الكتمان، ولكلّ حالة إمام يخصّها.

3.1 إمامة الشّراء:

إمامة الشّراء نوع من أنواع الإمامة عند الإباضيّة قديما[83]، وهو أن يبيع الإنسان نفسه ابتغاء مرضاة الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[84].

وما يميّز إمامة الشّراء عن غيرها من الإمامات عند الإباضيّة، أنّها عمل تطوّعي ضمن مسلك الشّراء بقصد مواجهة ظلم استشرى في المجتمع بسبب ظلم الحاكم واستفحال الفساد وأفول العدل. ولا يكون الشّراء على سبيل الوجوب والفرض، وإنّما على سبيل الاستحباب، لذلك فمن امتنع عن قبول إمامة الشّراء لا يبرأ منه. ويجتهد الشّراة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وفي حثّ النّاس على تغيير الحكم الجائر دون التعرّض للرّعية ولا للأموال، ولا يجوز لهم إخافة النّاس، وإن فعلوا ذلك انتقلوا من حكم الشّراء إلى حكم الحرابة[85].

ويرى الكندي أنّ الشّراء يستقيم عند الإباضيّة إذا "أرادوا أن يقاتلوا سلطانا ظالما، أو يستفتحوا بلادا فيها الجور، فالوجه في ذلك أن يقيموا إماما عادلا فاضلا؛ لأنّ الأحكام لا تقوم إلاّ بالإمام، يسيرون مع الإمام على السّلطان الظّالم الجائر، فيدعون إلى الحقّ والعدل، وبما حكم به في القرآن"[86].

يتّضح إذن أنّ الشّراء «يُلجأ إليه في حالات استثنائيّة تعبيرا عن السّخط على النّظام الحاكم، دون التعرّض لأحد بالقتال»[87]. ويرمي الشّراة من وراء ذلك إلى إعلان الثّورة ضدّ الظّلم والفساد، وتغيير نظام حكم جائر بالقوّة ، وإشاعة سلطة سياسيّة بديلة تتوخّى الشّريعة منهاجا.

ولئن كان الشّراء أمرا تطوّعيا إراديا، نابعا من القناعة الذّاتيّة، فإنّ الميثاق المعقود بين الإمام والمقاتلين أشدّ صرامة في هذا الضّرب من الإمامة، فهو يربط الإمام شخصيّا مع كلّ واحد منهم، "فأبو بلال مرداس وعروة أبناء أديّة رضي الله عنهما خرجا بالعراق في أيّام يزيد بن معاويّة على عبيد الله بن زياد، وإنّما كانت إمامته على من كان خرج معه"[88].

82 معجم أعلام الإباضيّة ، م.م ، الجزء 2 ، ص 477.
83 مجموعة من الباحثين ، معجم مصطلحات الإباضيّة ، م.م ، الجزء1 ، ص551.
84 التوبة،الآية 111.
85 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء1، ص551.
86 أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي، المصنّف، م.م، الجزء10، ص 52.
87 فرحات الجعبيري، التجربة السياسيّة الإباضيّة في المشرق والمغرب، م.م، ص 34.
88 البزادي، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أغفل به كتاب الطّبقات، م.م، ص67.

وقد رأى كوبرلي أنّ "السّيرة المناسبة لمسلك الشّراء تتمثّل في اختيار رجل يجتمع عليه الإباضيّة فيجعلون إليه الحقوق الّتي فرضها الله عليهم»[89]. وتهمّنا في هذا القول مسألة اختيار الإمام بما يلائم إكراهات الواقع الموضوعي، وهذا ما يؤكّد مرّة أخرى أنّ المسلك هو الذي يوجّه الإباضيّة إلى البحث عن إمامة تلائمه، وتتقصّد إمامة الشّراء تغيير هذا الواقع بما يمليه عليها الفكر السّياسيّ الإباضيّ.

ولكنّنا نعتقد أنّ مبايعة إمام الشّراء أمر لا يجتمع عليه الإباضيّة كلّهم، بل "على من خرج معه" فحسب، أي يجتمع الشّراة وعددهم "من أربعين فما فوق"[90] على إمام يبايعونه للشّراء. وقد احتفظت الذّاكرة الإباضيّة بسمات خاصّة وسمت إمام الشّراء وتابعيه، فقد ورد في سيرة سالم بن ذكوان «وارغبوا فيما رغّبكم الله فيه من نعيم الآخرة وكرامتها، وازهدوا فيما زهّدكم الله فيه من الدّنيا وزينتها، وآثروا كتاب الله وطاعته على هوى أنفسكم»[91]. ويبدو أنّ خطاب بن ذكوان هذا مشدود إلى ثنائيّة التّرغيب والتّنفير، التّرغيب في الآخرة وإيثار حبّ الله على النّفس، والتّنفير من الدّنيا وزينتها، ودعوة إلى الزّهد فيها، لأن الطّريق إلى الجهاد لا يكون إلاّ بمجانبة لهو الدّنيا، ويتأكّد ذلك في قوله: «ولن تنجوا ممّا تُحذّرون إلاّ بترك ما تشتهون، وخذوا نصيبكم من الجهاد في سبيل الله فإنّه أشرف الأعمال عند الله وأفضلها ثوابا، وهي التّجارة التي لا تبور والتي تنجي من عذاب أليم»[92]. ويتجلّى لنا تكثيف حضور هذا المعنى في الذّهن، من خلال تذييل المتلفّظ دعوته إلى التّرغيب في الجهاد بالآية:﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[93]. وهي بمثابة حجّة الاستشهاد[94]، وغايتها توضيح أفضليّة الجهاد على القعود وتكثيف حضوره في الذّهن، بجعل القيمة المجردة محسوسة، فيتسنّى للمتقبّل تمثّلها وهي في أرقى درجات سلّم الفضيلة والثّواب.

ونرجّح أنّ إمامة الشّراء أشرف وأفضل و»أحبّ الأمور إلى الله عزّ وجلّ وإلى المسلمين، إن لم يكونوا يقدرون على الظّهور»[95]، وممّا يستدلّ به على ذلك أن الشّراة إن شاؤوا أن يتسلّموا الأمور خلال إمامة الدّفاع، "فإن لهم كل الحقّ في ذلك لأن إمام الشّراء، بما له من نيّة التّضحية بحياته من أجل المجتمع الإباضي ، أحق بالقيادة من إمام الدّفاع"[96].

89 بيير كوبرلي ، مدخل إلى دراسة الإباضية وعقيدتها :بحث مقارن في العقيدة الإباضية في بلاد المغرب وعمان ، م.م ، ص430.

90 عدون جهلان ، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال آراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش ، م.م، ص 190.

91 سالم بن ذكوان، سيرة سالم بن ذكوان، ضمن كتاب :
The epistle of Salim Ibn Dhakwan , United States , Oxford, Patricia Crone , Fritz Zimmerman ..University , 2001 , , PP50-52

92 م.ن، ص 52 .

93 النّساء ،الآية 95.

94 حجّة الاستشهاد غايتها توضيح القاعدة وتكثيف حضور الأفكار في الذّهن، وربّما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجرّدة إلى أخرى محسوسة، ولعلّ القرآن الكريم فيما يقدّم لنا من أمثلة حجاجيّة أهمّ مصدر لهذه الأشكال الحجاجيّة، انظر: صابر الحباشة ، التداوليّة والحجاج : مداخل ونصوص، ط1، سورية ،صفحات للدّراسات والنّشر، 2008، ص 49.

95 محمد بن يوسف أطفيش، شرح كتاب النّيل وشفاء العليل، ، ط1، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1989، الجزء14 ، ص310.

96 عمرو خليفة النّامي، دراسات عن الإباضيّة، م.م، ص ص284 ،285.

ومن جهة أخرى تنأى إمامة الشّراء عند الإباضيّة عن الاستعراض، بقبول القاعد[97] وعدم البراءة منه، فقد ورد في ذات السّيرة قول ابن ذكوان: «وحلالنا اليوم في دار قومنا حلالنا إذا خرجنا وحرامنا إذا خرجنا حرامنا اليوم في دار قومنا، نعلم بحمد الله أنّه لا يُحرّم على الخارج منّا شيء هو للقاعد حلال ولا يحلّ للقاعد منّا شيء هو على الخارج حرام»[98]. ونعتقد أنّ الخروج قد أُستعمل في هذا الحيّز النّصيّ بمعنى الشّراء، ليفيد أنّ الانخراط في إمامة الشّراء عمل اختياريّ تطوّعي، وليس على سبيل الوجوب والفرض، بل على سبيل الاستحباب، لذلك فمن امتنع من القعدة عن قبول إمامة الشّراء، وآثر القعود على الخروج، لا يُبرأ منه، بل تظلّ حقوقه محفوظة ضمن الجماعة الإباضيّة التي ينتمي إليها، فلا أفضليّة للشّاري على القاعد إلاّ بما يتأتّى له من اختياره هذا، في حين أنّ مثل هذا الاعتقاد يتضارب كلّ التّضارب مع ما ذهب إليه ابن الأزرق وأصحابه الذين لا يقولون بالقعود، "فكفّروا قعدتهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وحرّموا ولايتهم والاستغفار لهم"[99].

فلاشكّ إذن أنّ إمامة الشّراء، تتمايز عن الاستعراض، ولا تبرأ ممّن آثر القعود على الشّراء في المجتمع الإباضيّ، ويتأكّد هذا المنزع في قول اطفيّش: "غير أنّ علماءنا لم يجعلوا حال الشّراء الوجوب والفرض كحال الظّهور والدّولة، فمن شاء فليشرِ نفسه ابتغاء مرضاة الله، ومن شاء قام مُكْتَتِما بين ظهراني قومه، هذه سيرة المسلمين لم ينقم فيها خارجهم من مقيمهم، ولا مقيمهم من خارجهم، وليس الأمر في ذلك على ما ذهب إليه غالبيّة الخوارج أنّ المسلمين لا تسعهم الإقامة مع الجبابرة في الكتمان مقصّرين أو غير مقصّرين»[100].

ويحسن بنا أن نشير أيضا إلى أنّ "القعود" و"الإقامة" يقفان على خطّ نقيض من لفظتي "الشّراء" و"الخروج" المحمّلتين بمعنى السّفر بوجهيه الحقيقي والمجازي، أي القتال الدائم ومحاربة الظّلم، أو الاستعداد للاستشهاد والسّفر إلى الجنّة التي في سبيلها باع الشّراة أنفسهم، وهي مطمحهم وحلمهم، ونعتقد أنّ هذا الرأي كان محلّ اتّفاق بين علماء الإباضيّة الذين أجمعوا على أنّ الشّراة كانوا على سفر، فليس لهم أن يقيموا في ديارهم قبل أن يزهق الباطل ويعلو الحقّ، أو أن يستشهدوا جميعا، منازلهم سيوفهم، فإذا ما عادوا إلى منازلهم الأصلية لقضاء شأن مستعجل، فعليهم أن يصلوا صلاة سفر.

واستنادا إلى ما سبق نخلص إلى أنّ إمام الشّراء يُشترط فيه الاستعداد للتّضحية بالنفس في سبيل الله، هو ومجموعته التي لا تقلّ عن أربعين رجلا لحثّ بقيّة الأمّة على تغيير حكم أعداء الله الجائر[101]. وما يميّز إمام الشّراء عن غيره من الأئمة في مسالك الدّين الأخرى، أنّ الشّراة أنفسهم هم الذين يختارون القائد الملائم لطبيعة المرحلة، وهو الأكثر مقدرة وشجاعة وورعا وإيثارا ورغبة

97 القعدة: مفرده قاعد، وهو لفظ أطلقه فريق المحكّمة بعد النّهروان على أتباع أبي بلال مرداس بن أديّة التميمي، الذين قعدوا عن الخروج على الحكّام الأمويين، ويمثّل القعدة الفرقة المعتدلة من المحكّمة، وهي بمثابة البذرة التي أنتجت فيما بعد فرقة الإباضيّة التي تميّزت عن الأزارقة وغيرها من فرق الخوارج المتطرّفين، وكان قعودهم التزاما بمنهج المحكّمة الهادئ المتروّي المحكّم للدّين والعقل، أُنظر: مجموعة من الباحثين، معجَمَ مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء2، ص ص867 ، 868.

98 سالم بن ذكوان، سيرة سالم بن ذكوان، م.م، ضمن كتاب :
.*The epistle of Salim Ibn Dhakwan*, P144, Patricia Crone , Fritz Zimmerman

99 م.ن، ص102.

100 محمد بن يوسف اطفيّش، شرح كتاب النّيل وشفاء العليل، م.م، الجزء14، ص310.

101 عمرو خليفة النّامي، دراسات عن الإباضيّة، م.م، ص ص 277، 278.

في الشّهادة، وهو إمامهم وقدوتهم، يأتمرون بأمره. وعليه فإنّ سلطته ملزمة لأتباعه فقط، ولا تمتدّ إلى خارج دائرة الشّراء.[102]

وبناء على ما تقدّم نتبيّن أنّ هدف الشّراة عظيم عظم مسؤوليّة المسلمين في إقامة أحكام الله ، وهذا ما جعل نشاطهم ينصبّ أساسا على إزالة الظّلم والظّالمين وإسقاط هيبة السلاطين الجورة وإفساد خططهم حتّى لا يتمّ لهم ما يريدون بالأمّة الإسلاميّة من فساد وانحراف[103].

ومن هنا فإنّ نظام الشّراة يعتبر نظاما ثوريّا محكما يعتمد على التخطيط الدّقيق والتنفيذ المحكم والوقوف ضدّ الظّلم والجور ، والإباضيّة وحدهم يتميّزون عن غيرهم من الفرق الإسلاميّة بهذا النّظام وهو من أدقّ الأساليب التي وضعها فقهاء الإباضيّة لإخراج المسلمين من وضعيّة هم فيها ضعفاء لا يملكون قوّة ولا مالا ولا علما إلى الفئة القليلة وهي التي جاز لها الخروج خدمة لأمّتها[104]. وممّا يجدر التّنصيص عليه في هذا المضمار أنّ «الشّراء من أخصّ أوصاف الإباضيّة وأوّل من قام به أبو بلال مرداس بن حدير ...حتّى أنّ من الحقّ إذا أطلق الشّراء فلا ينصرف إلى سواهم ممّن ينسب إليه من الخوارج ، ولم يعرف الشّراء قطّ في غيرهم ...ولن يستطيع كاتب محقّق أن يجد الشّراء في غير الإباضيّة مهما حاول»[105].

4.1 إمامة الكتمان:

إمامة الكتمان عند الإباضيّة مظهر من مظاهر الإمامة القديمة، وأحد أنواعها الأربعة، وهي الإمامة الصغرى[106]، التي بها يدار مسلك الكتمان.

وقد أشارت المؤلفات الإباضيّة في هذا المضمار إلي مرحلة جابر بن زيد باعتباره رائدا لإمامة الكتمان، ولم تتردّد في الإشارة إلى أنّ نسبته إلى الإباضيّة ليست محلّ إجماع، ففي موسوعة آثار الإمام جابر بن زيد الفقهيّة، قال يحيى بن سعيد القطان: "أخبرنا سعيد بن عامر وعفان بن مسلم قالا حدثنا همام عن قتادة عن عزرة قال: قلت لجابر بن زيد: إنّ الإباضية يزعمون أنك منهم، قال: أبرأ إلى الله منهم، قال سعيد في حديثه: قلت له ذلك وهو يموت"[107].

وفي مقابل هذا القول يرى الشّماخي أنّ "جابر بن زيد الأزدي بحر العلم وسراج الدّين، أصل المذهب واسمه، الذي قامت عليه آطامه"[108]، وفي موقع آخر من السّير ورد أنّ عبد الله بن إباض «يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد»[109]، ونستشفّ من هذا القول إشارة إلى إمامتين، الإمامة العلميّة الفقهيّة التي كان يتولاّها جابر بن زيد في السّر، وإمامة الواجهة السّياسيّة التي كان يتولاّها عبد الله بن إباض في العلن، ولئن ذهب الباحث محمّد صالح ناصر إلى أنّ «بعض الكتابات المناوئة

102 م.ن، ص ص 280- 282

103 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 327.

104 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص 328.

105 الشّماخي والتلاتي ، مقدّمة التوحيد وشروحها ، صحّحها وعلّق عليها أبو اسحاق اطفيش الجزائري ، القاهرة ، 1934، ص 53.

106 مجموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، م.م، الجزء2، ص 905 .

107 جابر بن زيد ، موسوعة آثار الإمام جابر بن زيد الفقهيّة ، جمع وترتيب وتعليق إبراهيم بن علي بولرواح، ط1 ، سلطنة عمان ، نشر جمعيّة التراث، 2005 ، ص 163.

108 الشّماخي ، كتاب السّير ، م.م ، الجزء1، ص 182.

109 م.ن، ص 189.

تنفي علاقة جابر بن زيد بالإباضيّة وتنكر أخذه بمبادئ المحكّمة، حتّى يجرّدوا هذا المذهب من أحد عناصره القويّة، بل أن يقوّضوا أساسه ومعتمده»[110]، فإنّنا نرجّح أنّ توخّي جابر بن زيد السّرية والحذر اللّذين يقتضيهما مسلك الكتمان، هو الذي أثار هذا الخلاف وأوجد هذا الغموض حول انتسابه إلى الإباضيّة وتولّيه الإمامة الصّغرى.

ويتبدّى لنا بناء على ما سبق أنّ الإمام في مرحلة الكتمان يُتعمّد ستره، فهو غير ظاهر للعيان، ممّا حدا بالدّرجيني إلى تعريف الكتمان بأنّه «ملازمة الأمر سرّا بلا إمام»[111]. ونعتقد أنّ هذا التّعريف لا يرمي إلى تغييب الإمام تماما في هذه المرحلة، بقدر ما يعني ملازمة الأمر سرّا بلا إمام ظاهر في مرحلة الكتمان، لأنّ في ظهور الإمام خشيتين: خشية عليه من ملاحقة السّلطة الجائرة وقتله، وخشية على المذهب من ضربات قد تقوّضه.

فلا شكّ إذن أنّ الإمام الإباضيّ في طور الكتمان في حالة تخف من الحكّام، لا يعلمه إلاّ مريدوه ومناصروه، وهم مطالبون بستر خبر دعوته حفاظا عليه من فتك الجورة، ويتمّ أثناء ذلك كتمان الإباضيّة تمسّكهم بدينهم للمحافظة عليه وضمان استمراره في السرّ لا في العلن.ولعلّ أشدّ المفارقات طرافة في رأينا تجلّت في أنّ إخفاء الدّين كان أفضل السّبل لاستمراره وبقائه.

فلا جدال إذن في أنّ إمامة الكتمان قد طبعت منطلقات الفكر السّياسي الإباضي، ثمّ أصبحت سلطة يلتجئ إليها المجتمع الإباضيّ في حالات الضّعف والتّراجع، ولم يكن هذا المبدأ القائم على السرّية غاية في حدّ ذاته، بقدر ما كان وسيلة وتكتيكا للإعداد لمرحلة هي مطمح هذا الفكر ومبتغاه وهي إمامة الظّهور.

والنّاحية الأهم التي تميّز إمامة الكتمان في تقديرنا، هي تعليق الإمام العمل بعقوبة الحد[112]، وصرف الجهد للحفاظ على وحدة المجتمع الإباضيّ، ونشر تعاليم المذهب وعقيدته سرّا، ومدّ جسور التّواصل بين الجماعات الإباضيّة المتفرّقة مشرقا ومغربا على المستويين العقديّ والسّياسيّ.

وممّا يُلاحظ في إمامة الكتمان أيضا أنّها تتميّز بطابعين لا يخرجان عن صفة الكتمان والتستّر:

الأوّل: كتمان خفيّ ، وهو الركون والرّكود التّام عن النّشاط العلنيّ وهذا يأتي في الظّروف التي يطغى فيها السلاطين ويحكمون بقوّة الحديد والنّار وهذا ما عاشه الأئمّة الإباضيّة الأوّلون .

الثّاني: وهو الكتمان المعتدل حيث يبرز الإباضيّة بنشاطهم مع سائر أعضاء المجتمع الكبير في الدّولة الحاكمة ويكون هذا النّوع من الكتمان عندما يسمح بحرّية الرّأي وحرّية النّشاط ، ولكن في كلتا الحالتين لا بدّ من نصب إمام يقوم بقيادة المجتمع الإباضيّ[113].

وجملة الأمر أنّ إستعراض مسالك الدّين وأنواع الإمامات عند الإباضيّة ، قد مكّننا من تلافي الخلط والتّداخل بين المصطلحين ، وإدراك سبل الفصل والوصل بينهما.فليست الإمامة هي التي

110 محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة عند الإباضيّة، م.م، ص 96.
111 الدّرجيني، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، م.م، الجزء1، ص 6.
112 عمرو خليفة النّامي، دراسات عن الإباضيّة، م.م، ص 283.
113 بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة ، م.م ، الجزء الأوّل ، ص ص 330، 331.

تحدّد نوع المسلك ، وإنّما على العكس من ذلك، فمسلك الدّين هو الذي يفرز نوع الإمامة التي تلائمه، وهي نفسها تؤثر في سبل توجيهه كلّما رسمت خطّة محكمة وفق الممكن السّياسي.وعليه فإنّ الإمامات تتبدّل وتتنوّع بتغيّر مسالك الدّين وفق الظّروف التّاريخيّة التي تمرّ بها المجتمعات الإباضيّة.وتلك سمة مهمّة تكشف عن ثراء الفكر السّياسيّ الإباضيّ ومرونته إزاء الواقع الموضوعيّ المتبدّل والمتغيّر على الدّوام ، وما يقتضيه ذلك من المناورة واستيعاب اللّحظة التّاريخيّة ، وتحديد سبل التّعامل مع الخصوم السّياسيّين ، وفرز الأصدقاء من الأعداء وفق طبيعة المرحلة وموازين القوى.

ويمكن القول في خاتمة المطاف أنّ النظريّة السّياسيّة عند الإباضيّة تتفرّد عن غيرها من النظريات الأخرى بالتّميز بين أربع مراحل تاريخيّة ، عصر المجد وهو ظهور الفرقة الذي يتجلّى في قيام الدّولة ، وفترات الأزمة التي تجبر المؤمنين على اختيار موقف الدّفاع ، أو الشّراء الذي يُفرض في سياقات التّهديد الأقصى ، وأخيرا عصر المساكنة والتّعايش القسري في ظلّ حكم غير إباضيّ يُكره فيه المؤمنين على ممارسة الكتمان[114].

وقد استنبط الإباضيّة لكلّ عصر إمامة تخصّه ، وهذه الضُروب من الإمامة لا تتغيّر من حيث مضمونها العقائدي وجوهرها وأهدافها البعيدة.بل هي متنوّعة من النّاحية التّكتيكيّة وسبل التّسيير والتكيّف وفق الوضع الذي يعيشه المسلمون.ومن هنا نلاحظ أنّ للإباضيّة وعي سياسي عميق وتفقّه بلأوضاع السّياسيّة جعلهم يختارون لكلّ مرحلة من المراحل ولكلّ منطقة من المناطق التي يوجدون فيها أسلوبا معيّنا يتلاءم مع تلك الأوضاع.

114 أنظر في هذا الصدد:

Cyrille Aillet, « L'ibâdisme, une minorité au cœur de l'islam», *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* , décembre 2012 , mis en ligne le 06 juillet 2012. URL :http://remmm.:revues.org/7752 , P10

Il s'agissait de la distinction entre quatre cycles historiques qui pouvait se traduire par la, l'ère glorieuse de la « manifestation » (ẓuhûr) du mouvement formation d'États ; les épisodes de crise qui obligeaient les fidèles à adopter une position de « défense » (difâ) ; les contextes de menace extrême où le « sacrifice » (shirâ') s'imposait ; et enfin, le temps de la cohabitation et de la coexistence forcées avec un pouvoir non-ibâdite, qui contraignait les fidèles à la pratique du « secret » (kitmân).

قائمة المصادر والمراجع

جموعة من الباحثين، معجم مصطلحات الإباضيّة، ط1، سلطنة عمان، وزارة الأوقاف والشؤون الدّينيّة، 2008

عدون جهلان، الفكر السّياسي عند الإباضيّة من خلال أراء الشّيخ محمد بن يوسف أطفيش، ط3، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع

الشّماخي، كتاب السّير، تحقيق محمّد حسن ، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2009

الدّرجيني، ، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ط1، الجزائر، مطبعة البعث، 1984

أبو زكريا يحي بن أبي بكر، كتاب السّيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرّحمان أيوب، ط1، تونس، الدّار التونسيّة للنشر، 1985

بكير بن بلحاج وعلي ، الإمامة عند الإباضيّة بين النظريّة والتّطبيق مقارنة مع أهل السّنة والجماعة

علماء عمان ، السّير والجوابات، تحقيق وشرح سيّدة إسماعيل كاشف، ط 1 ، سلطنة عمان ، وزارة التّراث القومي والثّقافة ، 1986

أوق وغلان عبد الله نوح ، نظريّة الشّورى عند الإباضيّة ، ط1 ، غرداية ، المطبعة العربيّة ، 2012

حياة عمامو، «السّلطة والشّرعية في نظام الحكم الإسلاميّ المبكّر»، ضمن: السّلطة وهاجس الشّرعية في الثّقافة الإسلاميّة، ط1، تونس، دار أمل للنّشر والتّوزيع، 2005

البرّادي ، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات ، طبعة حجريّة، القاهرة

بيير كوبرلي، مدخل إلى دراسة الإباضيّة وعقيدتها :بحث مقارن في العقيدة الإباضية في بلاد المغرب وعمان

محمّد صالح ناصر، منهج الدّعوة عند الإباضيّة ، ط2 ، سلطنة عمان ، مكتبة الاستقامة ، 2002

أبو سعيد محمّد بن سعيد الكدمي ، الاستقامة ، سلطنة عمان ، وزارة التّراث القومي والثّقافة ، 1985

ابن سلاّم اللواتي الإباضي ، بدء الإسلام وشرائع الدّين ، تحقيق شفارتز وسالم بن يعقوب ، ط1 ، بيروت ، دار اقرأ للنّشر والتوزيع والطباعة ، 1985

أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي ، المصنّف ،ط1 ، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة،

فاروق عمر فوزي، الإمامة الإباضيّة في عمان، ط1، الأردن، جامعة آل البيت، 1997

فرحات الجعبيري، التجربة السيّاسيّة الإباضيّة في المشرق والمغرب، بحث مرقون، مكتبة فرحات الجعبيري

محمّد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، طبعة الكترونيّة، مؤسسة تاوالت الثقافيّة، 2010

أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي، المصنّف

سالم بن ذكوان، سيرة سالم بن ذكوان، ضمن كتاب :

The epistle of Salim Ibn Dhakwan , United, Patricia Crone , Fritz Zimmerman States , Oxford University , 2001

الشّماخي والتلاتي ، مقدّمة التوحيد وشروحها ، صحّحها وعلّق عليها أبو اسحاق اطفيش الجزائري ، القاهرة ، 1934

جابر بن زيد ، موسوعة آثار الإمام جابر بن زيد الفقهيّة ، جمع وترتيب وتعليق إبراهيم بن علي بولرواح، ط1 ، سلطنة عمان ، نشر جمعيّة التراث، 2005

Cyrille Aillet, « L'ibâdisme, une minorité au cœur de l'islam», *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* , décembre 2012 , mis en ligne le 06 juillet :2012. URL :http://remmm.revues.org/7752 , P10

Kaynakça

AILLET, Cyrille, L'ibâdisme, une minorité au cœur de l'islam», *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* , décembre 2012 , mis en ligne le 06 juillet 2012. URL :http://remmm.revues.org/7752 , P10:

AMAMU, Hayat, "es-Sultatû ve'ş- şer'iyyetû fi nizâmi'l-hûkmi'l-islâmiyyi'l-mûbekkir", *es-Sultatû ve hacisu'ş-şer'iyyeti fi's-sekâfeti'l-islâmiyye* içinde, Tunus: Dâru emel, 2005.

ebu BEKİR, Ebu Zekeriyyâ Yahyâ, *Kitâbû's-sîreti ve ahbârû'l-eimme, thk. Abdurrahman Eyyûb*, Tunus, 1985.

el-BERRADİ, *el-Cevâhirû'l-mûntekâtû fi itmâmi ma ehalle bihi kitâbu't-tabakât*, Kahire, t.y.

el-CA'BİRÎ, Ferhat, *et-Tecrûbetû's-siyâsiyyetû'l-ibâdiyyetû fi'l-meşrik ve'l-Mağrib*, y.y., t.y.

CEHLAN, Adun, *el-Fikrû's-siyâsiyyetû inde'l-ibâdiyye min hilâli ârâi'ş-Şeyh Muhammed b. Yusuf Atfiş*, Umman, t.y.

DEBBUZ, Muhammed Ali, *Târîhu'l-mağribi'l-kebîr*, Elektronik basım, Mûessesetû tavalet es-sekâfiyye, 2010.

ed-DERCİNİ, *Kitâbu tabakâti'l-meşâyih bi'l-mağrib*, thk. İbrahim Talay, Cezayir, 1984.

FEVZİ, Faruk Ömer, *el-İmâmetû'l-ibâdiyyetû fi Umân*, Ürdün: Al-i Beyt Üniversitesi, 1997.

el-KİNDİ, Ebu Bekr Ahmed b. Abdullah b. Musa, *el-Musannef*, Umman: Umman Ulusal Miras ve Kültür Bakanlığı, t.y.

el-KUDEMİ, *el-İstikâme*, Umman: Umman Ulusal Miras ve Kültür Bakanlığı, 1985.

el-LEVATİ el-İBADİ, ibn Sellam, *Bed'û'l-islâm ve şerâiu'd-din*, thk. Salim b. Yakub, Beyrut, 1985.

Mu'cemu mustalahâti'l-ibâdiyye, Umman: Din İşleri ve Vakıflar Bakanlığı, 2008.

NASIR, Muhammed Salih, *Menhecû'd-da'veti inde'l-ibâdiyye*, Umman: Mektebetû'l-İstikâme, 2002.

NUH, Vaglan Abdullah, *Nazariyyetû'ş-şûrâ inde'l-ibâdiyye*, Gardaya, 2012.

es-Siyer ve'l-Cevâbât, thk. İsmail Kaşif, Umman: Umman Ulusal Miras ve Kültür Bakanlığı, 1986.

eş-ŞUMAHİ, *Kitâbu's-Siyer*, thk. Muhammed Hasan, Beyrut: Dârû'l-medârî'l-islâmi, 2009.

---------- ve el-TELATİ, *Mukaddimetû't-tevhîd ve şurûhihâ*, tsh. Ebu İshak Atfiş, Kahire, 1934.

VA'Lİ, Bekir b. Bilhac, *el-İmâmetû inde'l-ibâdiyye beyne'n-nazariyyeti ve't-tatbîk mukârenetûn beyne ehli's-sûnneti ve'l-cemâa*, y.y., t.y.

ZEKVAN, Salim b., "Sîretû Sâlim b. Zekvân",*The Epistle of Salim ibn Dhakwan* içinde, Patricia Crone, Fritz Zimmerman, Birleşik Devletler Oxford Üniversitesi Yayınları, 2001.

ZEYD; Cabir b., *Mevsûatû âsâri'l-imam Cabir b. Zeyd el-fikhiyye*, yay. haz. İbrahim b.Ali Boulervah, Umman, 2005.